هل انتهى زمن الشعراء الصعاليك؟

هل حقاً قد كنت سعيداً !؟

خليل الاسدي

الى كزار حنتوش.. في منفاه الابدي

شكراً (حنتوش)..
لأنك غادرت المائدة الآنْ..
في بدءِ الألفين وسبعه..
وتركتَ فلاناً..
وفلانْ..
يجترّون العاقولْ..
ويلوكون اللبَان..
كعادتهم أبداً..
❖❖❖
كالقدّيسين مضيتَ وحيدا..
لاتحملُ من هذي الدنيا..
غيرَ الخسرانْ..
وعصاراعٍ قرويّ من غير مراعٍ..
أو قطعانْ..
وبقايا قطراتِ نبيذ بناتِ الحانْ..
كالقديسين مضيت وحيداً..
ورميت الكأس بعيدا..
ونضوتَ ثيابَ الخمرِ..
وتعتعة السكرِ..
لترقص عريانْ..
صوفياً من مملكةٍ أخرى..
ومريداً من أولادِ الجانْ..
لكن....
ما كان فتاتُ رغيفكَ غيرَ الخسران..
يا أسعدَ انسانٍ في العالمَ..
هل حقاً قد كنتَ سعيدا !؟..

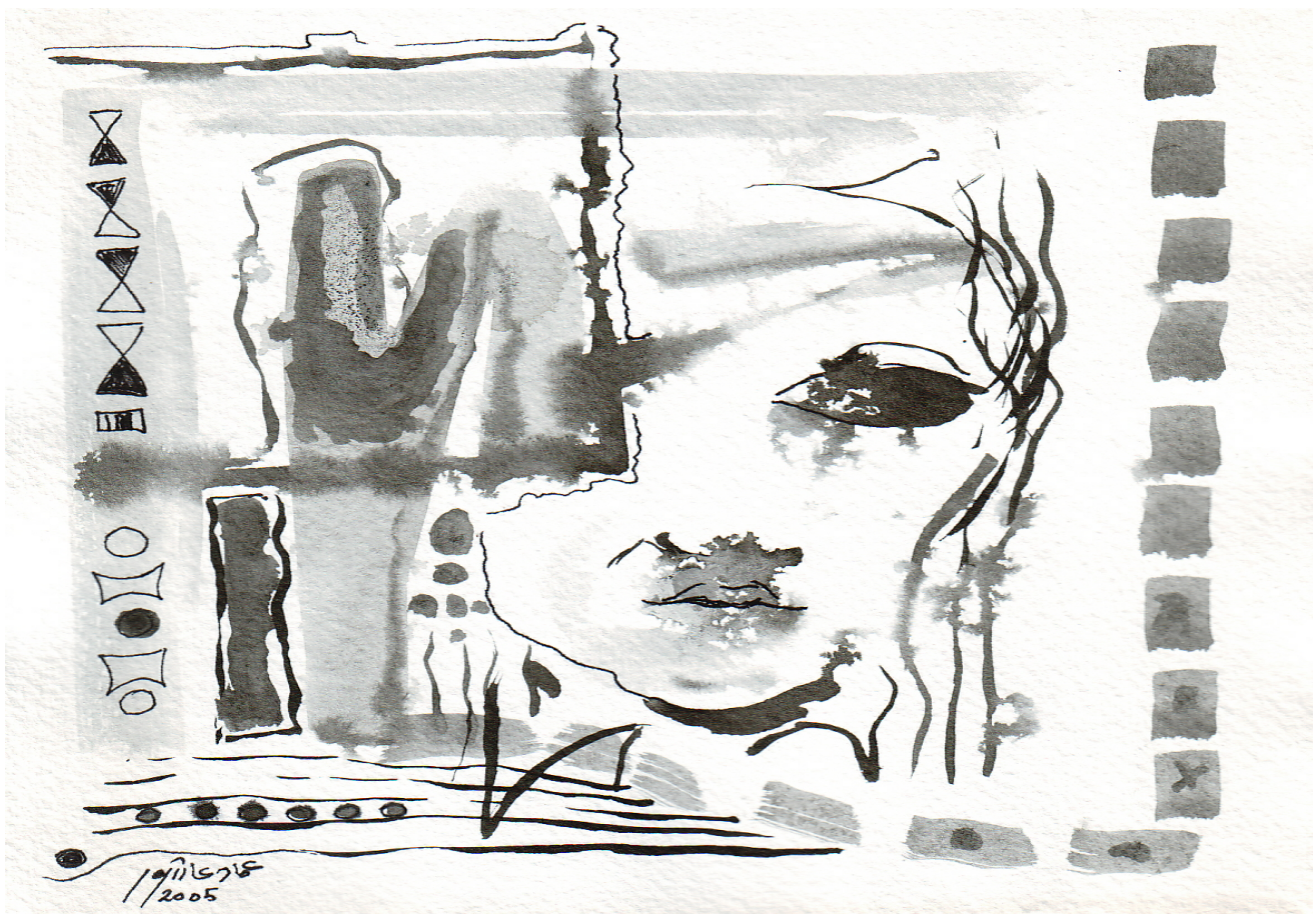

الحانةُ مازالت ثمله..
والندمانُ هم الندمان..
لا شيءَ تغيّر يا (حنتوش)..
الوقتُ هو الوقتُ بعينهِ..
والايامُ تسرّبُ من مدخنةِ الايامِ..
وتمضي نحو فضاءاتِ المعنى..
واللامعنى..
محضَ دخانْ..
هل حقاً قد كنت سعيداً !؟
والوطن الرائع في صحوتهِ..
أضحى سكرانْ..
دمهُ يشخبُ يا (حنتوش)..
يومياً يشخبُ..
هل معنى هذا...
الطوفان..!؟
ياذا العينين الماكرتين..
والطيبة..
والشعرِ الأجعدِ..
والساقين المترنحتينْ..
أعني الراقصتينِ..
كأنك في (آخر تانغو في باريس)..
يا (ييسينين) عراق الأكفانْ..
ها أنكَ قد غادرتَ الوطن/ المنفى..
نحو المنفى الأبديّ الآخر..
فاحجزْ لي في منفاكَ مكان...

زهور كزار حنتوش

د.أثير محمد شهاب

لا استطيع ان استوعب ان كزار حنتوش داخل القبر..ابتسامته لن تغادرني ..وضحكاته ....وهمساته وهو يحلف برأس الحسين ..والثمالة بادية في عينيه ... أصابعه...وهي تكتب القصيدة ...حلوى أصابع العروس ....وصوره الشعرية مشهد لفلم روائي. ستبقى أحزانه وحانته تطاردني إلى نهاية العمر ...كزار حنتوش الجزء الأخير لمجموعة لم تكتب لمحمد الماغوط ...وهل يجوز ذلك ..؟
سأجيبكم...
- نعم ..حينما يصح ان يقال إن العفوية مدرسته والنبع والطبع أخلاقه..
بلا شك ستجلس رسمية زوجته أمام المدفأة ....التي نارها من بقايا أثاث المنزل ..وهي تبكيه وتحزن له .... تقرأ له الدعاء في اخر الليل ..وتنشد الشعر حينما يكون غريبا داخل قبره ...وربما ستذهب إلى القبر ليلا لتوقد له الشموع (بصراحة ...هو..يخاف من القبر) ....يخاف الليل والوحشة ..
وستقدم له بعضا من ماء الورد ..وماء الزهر ..
كزار حنتوش نحيف كنسمة ريح ...ونقي مثل صوت أسراب الطيور المهاجرة..ورائع كخمرة طالب عبد العزيز..:
عيناه..ليل بغداد الأمس لا بغداد اليوم .... شعرهُ ....غابة نساء مجهولة يتجول فيها مجموعة من صعاليك بغداد يتقدمهم عقيل علي،ويحمل أمتعته كل من عبد اللطيف الراشد ...وصباح العزاوي....

لولا فيروز
وبغداد
ورسمية
لاقترنت ضفدعةٍ بي
والقى العنز عليّ الفضلات
ولكنت مجرد عربة
دون وقود
او عجلات

هل بالإمكان ان نتناسى زهور كزار حنتوش الشعرية ..وهي تفوح بعطرها في كل الملتقيات ...وكيف يتسنى للمرء ان يدير رأسه عن صوره التي هي في مزاجها نكهة مدينة لن تُعرفَ إلا بشاعرها هذا .....وهل يعقل ان نتذكر الديوانية من دون ان يكون كزار بوابها وحارسها الأمين ...هل فقدت الثقافة العراقية عقلها حينما مررت رحيل الكزار من دون بكاء ولا ندم ....حكايات هذا الطائر الجنوبي لا يمكن ان تنسى ....ولا نستطيع نحن الجالسين بالقرب من خمرته ان نبعد محبته وابتسامته الخجولة حينما يجلس بيننا ....سأروي لكم أيها الأصدقاء بعضا من حكايات كزار حنتوش التي لا تفارق الذاكرة :

حادثة أولى:

- في يوم ما ..حينما زار كزار الشاعر حميد سعيد –وكيل وزارة الثقافة في زمن صدام –دخل إلى سكرتاريته –وهو يقول لهم :
- أريد حميد ...
يضحك الموظف ..فيقول له تفضل ....
طبعا بأمر من الشاعر حميد سعيد :
يدخل ....وحالما يلتقي به يقول له على الفور :
-حميد ..أريد فلوس ....
يأخذه حميد إلى بيته ..ويدخله إلى الحمام ...يلبسه القاط الفرنسي ..ويدس في جيبه بعضا من النقود ....ثم يقول له :
- كزار مباشرة إلى الديوانية ..
يجيبه:
- اجل...
يستدرك الشاعر حميد سعيد ..اتفقنا ..وهو يهز رأسه...
يبتسم كزار ثم يقول له :
- اجل .... مرة أخرى
يدرك حميد سعيد جيدا ان كزار لن يذهب إلى الديوانية وسيعود له في اليوم التالي.
يغلق كزار خلفه باب الشاعر...ثم يتجه مباشرة إلى حديقة الأمة وفي جيب بنطاله قنينة الخمرة التي لا يستطيع مفارقتها....
جلس بهدوء راهب وراح يتذوق طعم الخمرة الجديدة.... .....جاء الصباح فلم يجد من البدلة الفرنسية سوى اللباس الداخلي الذي لم يكن كزار قد لبسه بالأصل ..يضحك ثم يقول لنا :
-هذا الحرامي شريف جداااا...اخذ مني البدلة وألبسني لباسا داخليا جديدا ...تصوروا ..يأخذ منه البدلة ويلبسه لباسا داخليا من دون ان يدرك الأمر ..هههههههه..يالها من سكرة

حادثة ثانية:

في مهرجان المربد الثاني الذي أقيم في البصرة بعد السقوط ...كنت أنا والشاعر كزار نتمشى ..وحينما مررنا بالقرب من الشاعر المبدع كاظم الحجاج ..قلنا له :
- السلام عليكم ....
أجاب الحجاج :
- أهلا ناظم

استغربت من الإجابة ...بضع خطوات ثم فهمت المقصود .....وظلت الضحكة تتصاعد وسط القاعة ورحت ابلغ الأصدقاء بالحادثة ....

كان الحجاج يقصد من هذه الإجابة ....: ان يقرن الرد بالاسم الأول من كزار ليصبح الاسم ناظم كزار ...الجلاد إبان البعث...ظلت القاعة تبتسم من هذا الموقف...وحنتوش يضحك أيضا ...

رؤية نقدية متأخرة: تدوين الثقافة الشعبية
استطاعت الثقافة الشعبية وعبر ممارساتها المتنوعة ان تقدم تراثا ثقافيا ضخما يوازي الثقافات والممارسات الإنسانية الأخرى، وقد لعب هذا التراث دورا مهما في تأصيل القيم والتذكير بها من دون ان تسنح الفرصة لاحد التخلي عنها، لأنها حاضرة للعيان عن طريق الاستعانة بالذاكرة الشفاهية .
وقد تعرض هذا الموروث الذي يمثل عادات وقيم الشعوب وثقافتها إلى انحرافات عديدة ومتغيرات سريعة بسبب الشفاهية التي يمتاز بها، مما تطلب العجالة في تدوينه حتى لا يكون عرضة للتغيير والتهميش، ولكي يرسخ قيم وعادات وثقافة شعب في حقبة زمنية معينة، وقد امتثلت التدوينية إلى طرق وأساليب عديدة، تتباين وتختلف بحسب طبيعة المعالجة، اذ اقتصرت بعض الأساليب على تدوين كل ثقافة شعبية على حدة مثلا كتب الامثال الشعبية، وكتب العادات، والألفاظ وهكذا .
ونحا بعض آخر إلى طرق اخرى تحدد في ضوء اختلاف الروايات التي تتعدد وتختلف بتعدد الألسن .
وثمة نمط ثالث قد جمع بين هذا الأسلوب وتلك الطريقة، وهذه الطرائق لم تقدم على كثرتها للحياة الثقافية سوى الأرشفة، إذ ظل الموروث الحكائي والعادات والتقاليد حبيسة المؤلفات والكتب، ومع هذا الجهد، فلا يمكن نكران الدور التأليفي الذي قدمته هذه الطرائق، ولكن كان من المفترض وضع نقاط وخطط تواصل بين الثقافة الشعبية ومختلف الأجيال، اذ وجدنا خلال النظر توترا بين الأجيال والثقافة الشعبية، بل تعدى الأمر إلى حد القطيعة، وهذا العيب الظاهر هو الذي جعل الهوة كبيرة بين ما قدمته الثقافة الشعبية من فعل وثقافة وبين ممارسات الثقافة الشعبية في الحياة العملية .
والمدخل الذي اتخذناه للدراسة نستعيره من اجل الوصول إلى نقطة الالتقاء ما بين واقع الثقافة الشعبية ومستقبل القصيدة العربية، ومن اجل الا نطيل لابد من ذكر خصوصية النص الشعري الحداثي حيال الثقافة الشعبية، اذ استطاع ان يخدم الثقافة الشعبية خدمة لا يمكن نكرانها، اضف إلى ذلك تمكنه من خلق سمة التواصل مع القارئ الذي بدأ يفقد علاقته بثقافته الشعبية لأسباب تتباين وتتقاطع مع طرائق ايصالها .
والخدمة التي قدمتها النصوص الشعرية الحداثية حيال الثقافة الشعبية تشكلت عن طريقتين في الاداء، تتجه الطريقة الأولى نحو النقل الارشيفي، في حين تتجه الطريقة الثانية نحو الممارسة الخلاقة القائمة على فعل الابداع .
وقبل الخوض في ممارسة طرائق توظيف واستحضار الثقافة الشعبية في النص الشعري الحداثي، لابد من الحديث عن أهمية الموروث الشعبي في الممارسة الشعرية .
تمكن الموروث الشعبي من اثبات حضوره في النصوص المعاصرة اقترابا من فهم المتلقي من دون تكلف، هذا الموروث الذي صنعته اجيال طويلة من تجاربها وممارستها للواقع العملي والوجداني والعقلي، برهن على قدرته المتميزة على تحميل النص اكبر طاقة ايحائية، فاقتراب الادب من الكلام يجعله اكثر حيوية وتدفقا، وعند انقطاعه عن الموروث تنفصم هذه العلاقة، ويبدو الادب - سيما - الشعر كأنه معجم ينثر الاسماء من دون علاقات، او انفجار من كلمات غير متوقعة تتطاير هنا وهناك.
ان اقتراب الشاعر من هذه المضامين وسيلة مهمة من اجل توثيق العلاقة بها، بعد ما ادرك بعد المسافة عنها في هذا العصر، من ذلك افاد شاعرنا من هذا الموروث والثقافة لما تضفيه من شحنة عاطفية وصورية لصيقة بحياة الناس على السياقات الشعرية، ويعد هذا الموروث اداة في ربط الماضي بالحاضر، وتخليد الماضي وترك سلبياته .
وتعدد طرائق توظيف الثقافة الشعبية في النص الشعري الحداثي، افضى الى معاينة وفحص كل طريقة على حدة، من حيث اهميتها وفاعليتها في التواصل الثقافي .
لم تقدم الطريقة القائمة على الارشفة - استحضار الموروث بطريقة حرفية قائمة على النقل - اية فاعلية او اضافة للموروث والثقافة الشعبية، وانما جعلتها شبيهة بوضعها قبل التوظيف، اذ اكتفى الشعراء باستحضارها بصورة حرفية لا تخدم سوى الغرض الشعري من دون خدمتها لمفاهيم تواصل الثقافة الشعبية او من دون مدها بابعاد ابداعية خلاقة، بمعنى تحول الشاعر الى مؤرخ للثقافات دون ان يضفي عليها اي شيء، والامثلة في هذا المضمار كثيرة بحيث يصعب حصرها. على الطرف الاخر قدمت بعض النصوص الشعرية الحداثية طريقة مغايرة في الافادة من الثقافة الشعبية، تمثلت في نقل الموروث الشعبي نقلة ابداعية تتلاحم مع النسيج الشعري، بحيث يبدو الموروث الشعبي كأنه بنية موحدة مع البنية الشعرية، وهذا الاداء هو الذي ميز استحضار الموروث والثقافة الشعبية عن غيرها من التوظيفات، ولعل شعر كزار حنتوش خير دليل على ذلك" يا نرجس"،" قصائد رسمية" :

يا نرجس حن
اوشك عمري
ان يأخذ ارجيلته
وعصاه
ومآربه الاخرى
للمقهى الطاعن في السن
يا نرجس حن
صار الشعر الملفوف الاملح لي تاجا
صارت حاشيتي طائفة الجن
يا نرجس حن
فاح الدخان من القلب
لبني مشنون من أوله
واتيت تشن
يا نرجس حن
انجبت روحي في تنور الرغبة سنوات
قصة عمري لعبت فيه" ان"
يا نرجس حن

قصائد رسمية

١- قوديني كخروف ضال
نحو ربيعك
خليني ارعى بين بساتينك
انت الطين الحري
وانا الماء
فلنمتزج الان
قيمر" معدان"
٢- منذ متى، وانا اتهدم
مثل بناء اثري
كنت تلمين بقاياي
بين الشوك وبين الاسل المضياف
اذ سقطت كالآجر
آخر ايام حياتي
بين يديك الواهنتين
شكلتيني كالخزاف
حسب مزاج الغابات
واخذتيني بين يديك المورقتين
حزمة نايات

-٣ -
طيلة عشرين سنة
وانا اتشمم بحثا عنك
كالكلب البوليسي
لم يفلت من انفي شيء
حتى صرة بنت المختار
واخيرا
٤- لولا فيروز
وبغداد
ورسمية
لاقترنت ضفدعة بي
والقى العنز علي الفضلات
ولكنت مجرد عربة
دون وقود
او عجلات
٥- يا روح البربين
كم انت رقيقة
اخشى ان استيقظ
ذات صباح
لاجدك على الوردة
طلا
او فوق النخلة
عصفورة
اخشى ان استيقظ فجرا
لاشمك عطرا
من اعطاف صديقة
اواه .. ياروح البربين
كم انت رقيقة ..
٦-
لا رسمية هذا اليوم
لا صحو غدا
اليوم غناء تحت التوت
وغدا تابوت

اذ يوظف الشاعر كزار حنتوش اللغة المحكية بما ينسجم واللغة الشعرية، بحيث يتحول الأداء واللغة اليومية من سياقها غير الشعري إلى سياق شعري عال في ادائه، وهذا ما حفظ لنص كزار خصوصية متميزة وبلاغة في التعبير .
فقصيدة" يا نرجس" تستحضر مفردة" حن" بوصفها لازمة تتكرر على طول النص، مع الاهتمام بنقل الصور من فعلها الدال على الفعل الشعبي إلى فعل شعري متميز" صار الشعر الملفوف الاملح لي تاجا، صارت حاشيتي طائفة الجن"،" لبني مشنون من اوله، انجبرت روحي في تنور الرغبة سنوات" والملاحظ ان استحضار مفردات" التنور، اللبن" من سياقها الشعبي الى سياق شعري جعلها ذات طاقة ابداعية متميزة، أضف إلى حلاوة قبولها بوصفها صياغة شعبية التوظيف امام التوظيفات الحرفية الأخرى التي لا تخدم التواصل .
على الطرف الآخر تقدم قصيدة" قصائد رسمية" للقارئ، مفردات جمة تخدم اللغة المحكية في النص الشعري الحداثي" الطين الحري، قيمر معدان، الشوك، الآجر، نايات، ألقى العنز علي الفضلات، البربين" اذ ان تقديم وضخ النص بكمية عالية من المفردات الحكائية جعلته مميزا في توظيفه للموروث عن غيره من الشعراء، وخصوصية كزار تتميز في اضافته وتحويله للموروث إلى لغة ثانية غير اللغة الأصل، بمعنى تحويله اللغة المحكية إلى لغة محكية / شعرية، على خلاف اللغة المحكية الموظفة في النصوص الأخرى التي تبتعد عن مد جسور التميز .
والنصوص على وفق هذا الأداء، جعلتنا نوجه اهتمامنا نحو الإفادة من الصياغات الجديدة للموروث والثقافة الشعبية دون النظر إلى الأسلوب الأرشيفي الذي يقوم على استحضار الأساليب والمقولات الشعبية دون ان يكون لها أية خصوصية وفاعلية في الاستخدام، ومن دون ان تمنح القارئ خيطا يوصله بتراثه وثقافته الشعبية، وهذا المثول يفضي إلى تنوع الأساليب عند شعراء الريادة بين أسلوب قائم على الأرشفة وأسلوب قائم على منح الثقافة دفقة شعورية تعزز من قيمته بما يجعله طرفا في أخلاقيات الشعوب .